**سياسة القرآن فى الاصلاح**

**من كتاب مناهل العرفان فى علوم القرآن**

**بقلم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى**

**ومعنى هذا أن القرآن انتهج طريقا عجيبا فى إصلاحه وسلك سياسة حكيمة وصل بها من مكان قريب الى ما أراد من هداية الخلق فتذرع بجميع الوسائل المؤدية الى نجاح هذا الاصلاح الوافى بكل ما يحتاج إليه البشر مما يدل بوضوح على ان القرآن فى سياسته هذه لا يمكن ان يصدر عن نفس محمد ولا غير محمد**

**وبيان ذلك من وجوه :**

**( أولهما ) مجىء هذا الكتاب منجما ومخالفته بذلك سائر كتب الله الإلهية بعدا بالناس عن الطفرة وتيسيرا لتلقيهم إياء وقبولهم ما جاء به على نحو ما بينا فى أسرار التنجيم بالمبحث الثالث من هذا الكتاب**

**( ثانيها ) مجىء هذا الكتاب بذلك الاسلوب الشائق الرائع الحبيب الى نفوسهم ليكون لهم من هذا الاسلوب دافع الى الاقبال عليه والاستئناس بما جاء من تعاليمه وان كانت مخالغة لما مردوا عليه من قبل**

**( ثالثهما ) مجىء هذا الكتاب على غير المعهود فى تأليف القوانين والعلوم والفنون والاداب من بناء تقسيمها وتبويبها على الموضوعات بحيث يختص كل باب من الكتاب بموضوع معين ويختص كل فصل من فصول هذا الباب بمسالة او مسائل وهكذا فأنت تجد فى الغالب كل سورة من سور القرآن جامعة لمزيج من مقاصد وموضوعات يشعر الناظر فيها بمتعة ولذة كما تنقل بين هذه المقاصد فى السورة الواحدة كما يشعر الآكل باللذة والمتعة كلما وجد الوانا شتى من الاطعمة على المائدة الواحدة وإذن ففى هذا النمط الذى اختاره القرآن فائدتان دفع السأم والملل عن الناظر فى هذا الكتاب وانقياد النفوس الى هدايته بلباقة من حيث لا تحس بغضاضة يضاف الى هذا ما نلمحه من الوحدة الفنية فى السورة او القطعة الواحدة ومن وفاء القرآن بجميع الاصطلاحات البشرية على رغم هذا الانتشار القاضى فى العادة بعدم الانسجام وبفوات شىء او اشياء من مقاصد التأليف واغراض المؤلفين حتى ليبدو ذلك وجها جديدا من وجود الإعجاز يؤمن به عن خبرة وإحساس كل من ابتلى بتأليف او مزاولة آثار المؤلفين**

**( رابعا ) تكرار ما يستحق التكرار من الامور المهمة حتى يجد سبيله الى النفوس النافرة والطباع العصية فتسلس له القيادة وتلقى اليه السلم مثال ذلك تقرير القرآن لعقيدة التوحيد واستئصاله لشأفة الشرك بواسطة الحديث عنهما مرارا وتكرارا تارة يصرح واخرى يلوح وتارة يوجز واخرى يطنب وتارة يذكر العقيدة مرسلة واخرى يذكرها مدللة وتارة يشفعها بدليل واحد واخرى بجملة ادلة وتارة يضرب لها الامثال واخرى يسوق فيها القصص وتارة يقرئها بالوعد واخرى بالوعيد وهلم**

**( خامسا ) مخاطبة العقول والافكار ودعوته الى إعمال النظر وطلب الدليل والبرهان ونعيه على من اهملوا العقول واستمرءوا التقليد الاعمى وركنوا الى الجمود اقرأ قوله سبحانه " وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا \* بل نتبع ما وجدنا عليه ,باءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون " وقوله " إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون " وقوله " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها \* أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " وهكذا كثيرا ما نسمع فى القرآن أمثال قوله سبحانه " أفلا يسمعون – قليلا ماتذكرون – أنى يؤفكون – قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين – أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الارض كيف سطحت " " قل انظروا ماذا فى السموات والارض " الى غير ذلك مما يرفع كرامة الانسان ويحاكم أهم الالامور حتى العقيدة فى الله تعالى الى العقول ليصل المرء من وراء ذلك الى اقتناع الضمير واطمئنان القلب وبرد اليقين وحرارة الايمان**

**( سادسا ) استغلاله الغرائز النفسية استغلالا صالحا بعد ان يهذبها بالدليل ويصقلها بالبرهان هذه غريزة التقليد والمحاكة فى الانسان مثلا قد نأى بها القرآن عن احتذاء الامثلة السيئة من الجهلة والفسقة وذهب بها الى مقام أمين من وجوب اتباع الامثلة الطيبة والتآسى بمنأنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن ألئك رفيقا " " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الاخر وذكر كثيرا " " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم " أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده "**

**وهذه غريزة حب البقاء والعلو فى الانسان قد نأى بها القرآن أيضا عن الظلم والبغى وذهب بها إلى حيث الدفاع عن النفس والعرض والدين والوطن وقاد بها عباد الله الى الحق والخير إذ وعهدم حياة ثانية فيها الخلود والبقاء وفيها الملك الواسع والاستعلاء العادل " وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كثيرا "**

**وهكذا دخل القرآن على الناس من هذا الباب فقادهم من غرائزهم حتى ناط أوامر بمصالحهم ونواهيه بمفاسدهم وجعل ذلك قاعدة عامة فيها " من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء عليها " " إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها "**

**وان اردت تفصيلا وتمثيلا فانظر إلى تلك المقارنة الرائعة بين المؤمن والمشرك إذ يقول سبحانه " ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستون مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون " فانت ترى فى هذه الاية الكريمة ان المشرك مع معبوديه مثله مثل عبد اشترك فيه شركاء متنازعون مختلغون كل واحد منهم يدعى انه عبده فهم يتجاذبونه ويتعاورونه فى اعمال شتى وهو متحير متعب مجهود لا يدرى ايهم يرضى بخدمته ؟ وعلى ايهم يعتمد فى حاجاته ولا يدرى ممن يطلب رزقع وممن يلتمس رفقة ؟ فهمه شعاع وقلبه أوزاع أما المؤمن فمثله مثل عبد له سيد واحد فهمه واحد وقلبه مجتمع وضميره مستريح وعمله مريح " أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟"**

**وإن اردت مثالا ثانيا فاستمع الى القرآن وهو يقول فى فريضة الصلاة " إن الاسان خلق هلوعا \* إذا مسه الشر جزوعا \* ةإذا مصه الخير منوعا \* إلا المصلين " ألخ وقوله " ألا بذكر الله تطمئن القلوب "**

**وإن أردت أمثلة أخرى فاقرأ سبحانه فى فرض الزكاة "خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها " وقى فرض الصيام " كتب عليكم الصيام كما كتب على اللذين من قبلكم لعلكم تتقون " وفى فرض الحج " وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم " وفى عموم الايمان والعمل الصالح " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فانحيينه حياة طيبة ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"**

**( سابعها ) ترتيبه الاوامر والنواهى ترتيبها يسع جميع الناس على تفاوت استعدادهم ومواهبهم فالأوامر الدينية درجات هذا إيمان وهذا إسلام وهذا ركن وهذا فرض وهذا واجب وهذا مندوب مؤكد وهذا مندوب غير مؤكد والمناهى كذلك درجات هذا نفاق وهذا شرك وهذا كفر وهذه كبيرة وهذه صغيرة وهذا مكروم تحريما وهذا مكروه تنزيها وما وراء هذه الاوامر وتانواهى فمباحات لكل أن يأخذ وأن يدع منها ماشاء**

**ولا ريب أن وضع التشريع على هذا الوجه فيه متسع للجميع وغيه إغراء للنفوس الضعيفة ان نتشرف با عتناق الاسلام ولو فى ادنى درجة من درجاته حتى إذا أنست به وذاقت حلاوته تدرجت فى مدارج الرقى فمن ايمان الى اسلام الى اداء ركن الى اداء ركن الى اداء فرض الى اداء واجب الى اداء مندوب مؤكد الى اداء مندوب غير مؤكد ومن ترك نفاق الى ترك شرك وكفر الى ترك كبيرة الى ترك صغيرة الى ترك مكروه تحريما الى ترك مكروه تنزيها الى ترك ما لا بأس به حذرا مما به بأس ومن مجرد أداء للنوافل الى زيادة فيها وإكثار منها حتى يصل العبد الى ذلك المقام الذى جاء فيه عن عن الله تعالى " ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله العتى يمشى بها ولئن سألنى لأعطيته ولئن استعاذ بى لأعيذنه " رواه مسلم فى صحيحه عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه**

**على ضوء هذه السياسة الشرعية الحكيمة التى نزل بها القرآن كان صلى الله عليه وسلم يتدرج بالأقوام رويدا رويدا كما كان يتساهل معهم تأليفا لقلوبهم واستمالة لهم إلى اعتناق الجين على اى وجه ومن ذلك ماوراء الامام تحمد بسنده عن نصر بن عاصم الليثى عن رجل منهم أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم على ان يصلى صلاتين ( لاجمسا ) فقبل منه وجاء فى رواية اخرى على الا يصلى إلا صلاة فقبل وعن وهب قال سألت جابرا عن شأن ثقيف إذ بايعت فقال اشترطت على النبى صلى الله عليه وسلم ان لا صدقة عليها ولا جهاد وانه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك " سيتصدقون ويجاهدون " رواه ابة داود وعن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل اسلم قال أجدنى كارها قال " أسلم وإن كنت كارها | رواه احمد قال الشوكانى فى نيل الاوطار بعد ان سرد الاحاديث " فيه دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الاسلام منه وإن شرط شرطا باطلا "**

**والمراقب لنزول القرآن وسير التشريع الاسلامى يرى من مظاهر هذه السياسة البارعة المعجزة شيئا كثيرا وحسبك ان يبتدىء الامر بتقرير عقيدة التوحيد وألا تفرض الصلوات الخمس إلا بعدعشر سنوات تقريبا من البعثة ثم سائر العبادات بعضها تلو بعض اما المعاملات فلم يستبحر الامر فيها الا بعد الهجرة وقل مثل ذلك فى المنهيات ولعلك لم تنس التدرج الإهى الحكيم فى تحريم الخمر**

**( ثامنهما ) مجىئ القرآن بمطالب الروح والجسد جميعا بحيث لا يطغى احدهما على الاخر وفى ذلك آيات كثيرة نقدم التنويه بها فى مناسبات اخرى من اجلها كان المسلمون امة وسطا بين من تغلب عليهم المادية والحظوظ الجسدية كاليهود ومن تغلب عليهم النواحى الروحية وتعذيب الجسد ‘ذلال النفس كالهندوس والنصارى فى تعاليمهم وإن خالفتها الكثرة الغامرة منهم**

**( تاسعها ) مجىء القرآن بمطالب الدنيا والاخرة جميعا عن طريق التزام تعاليمه وهداياته التى اجملنا مقاصدها فيما سبق لا عن طريق الاعتقادات الخاطئة والامانى الكاذبة والتواكل وترك العمل والايات فى هذا المعنى أظهر من أن تذكر**

**( عاشرها ) مجىء القرآن بالتيسير ورفع الحرج عن الناس " ما جعل عليكم فى الدين من حرج " " مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم" " لا يكلف الله نفسا إلا وسعها " " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " " فمن اضطر فى مخمصة غير متحالف لإثم فإن الله غفور رحيم "**

**" من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان " وهذا باب واسع وضع منخة علماؤنا قواعد عامة كقولهم المشقة تجلب التيسير والضرورات تبيح المحظورات ثم فرعوا عليها فروعا وسعن ولا تزال تسع الناس اجمعين والحمد لله رب العالمين**